دراسات في الأدب الصومالي

يعد كتاب (دراسات في الأدب الصومالي) لمحمد محمود أحمد من أوائل ما كتب عن الأدب الصومالي. وقد صدر الكتاب - في طبعته الأولى - عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م. وتتبع أهمية الكتاب من شموليته البحثية. ففيه بحوث لغوية، وأخرى تاريخية عن الشعب الصومالي وعاداته وتقاليده.

أحمد إبراهيم برعي - مصر

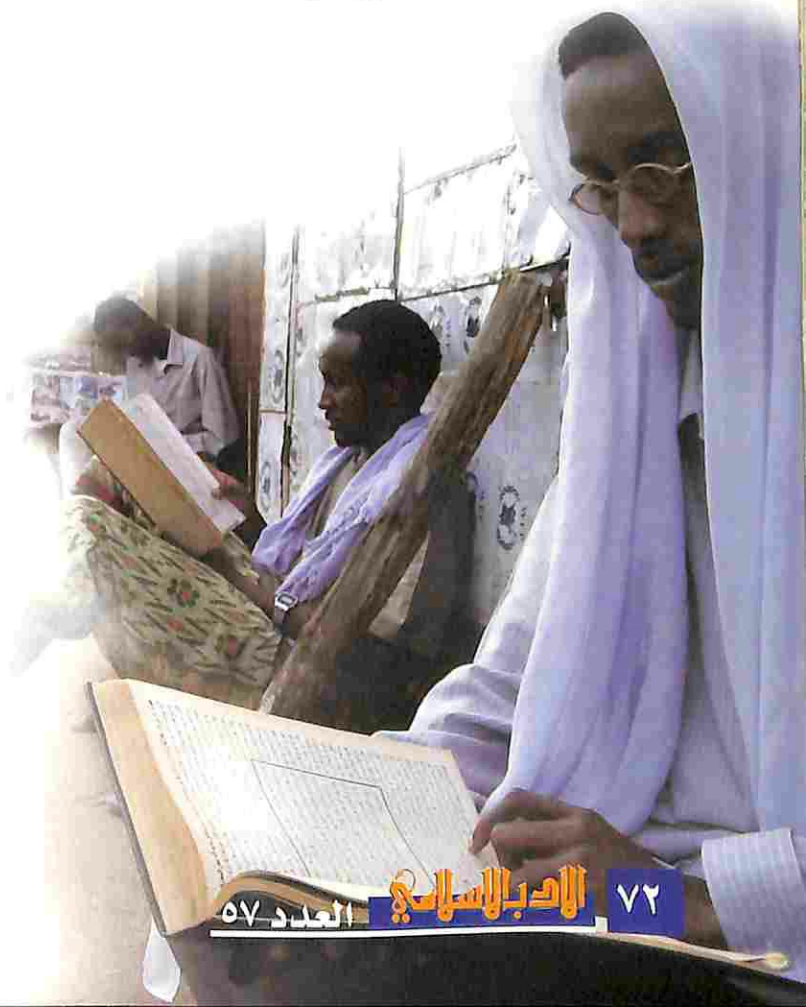

وقد حوى الكتاب سبعة فصول: الأولى: اللغة الصومالية، الثاني: الصومال بين المكان والزمان، الثالث: العادات والتقاليد، الرابع: الحياة الاقتصادية، الخامس: الشعر الصومالي، السادس: الأمثال والحكمة، السابع: القصة الصومالية.

◁ أثر اللغة العربية في اللغة الصومالية:

يوضح المؤلف أن الدراسات اللغوية أثبتت أن اللغة الصومالية تنتمي إلى مجموعة اللغات الكوشية التي تضم بضعا وثلاثين لغة ولهجة تنتشر في أرتيريا والصومال وأثيوبيا. وتعد اللغة الصومالية ولغة الجالا من أهم لغات المجموعة الكوشية إذ إن عدد المتحدثين بهما يفوق مجموع عدد المتحدثين ببقية اللغات الكوشية الأخرى، ويبدو أيضا من الدراسات التي أجريت أن اللغة الصومالية وكذلك بقية اللغات الكوشية، ترتبط مع مجموعة لغوية كبرى تشمل لغة البربر والمصريين القدماء واللغة السامية. كما يشير المؤلف إلى أن هناك علاقة كبيرة بين اللغة الصومالية واللغة العربية، وأن هذه العلاقة سابقة على الإسلام. ولما دخل الإسلام إلى الصومال دخلت معه ألفاظ دينية كثيرة.

وقد قام المؤلف بإجراء بحث عن العلاقة بين اللغة الصومالية واللغة العربية فتبين له أن أكثر من ثلاثين في المائة من الكلمات الصومالية من أصل عربي، وقد أخذت خصائص الكلمات الصومالية من حيث الاشتقاق والتصريف، كما يتضح من الأمثلة الآتية:

قلم = قلن
معلم = معلن
بدلت الميم في نهاية الكلمتين نونا
إحسان = إسحان
إبرة = إربد

حدث في هذه الكلمات إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض.

◁ الشعر الصومالي وخصائصه

يتحدث المؤلف عن الأحوال الاجتماعية والتاريخية والظروف الطبيعية التي استمدت منها عناصر الأدب الصومالي كيانها وأصبح صدى لانعكاس آثارها في نفوس الأفراد.

ويستعرض المؤلف قصائد عديدة من الشعر الصومالي المعاصر، ويكشف عن خصائصه حيث يشير إلى أن قافيته تتمثل في ابتداء بعض الكلمات بحرف واحد، وأن يكون في كل شطر من شطري البيت الواحد كلمة واحدة على الأقل تبدأ بالحرف نفسه، وتسمى في اللغة الصومالية (هغّاد) أي حروف الهجاء، وقد يكون هذا الحرف ساكنا أو من الحروف المتحركة. وهذه الظاهرة يلاحظها من يسمع الشعر الصومالي أول وهلة.

والشعر الصومالي عبارة عن سطور متوازية على نسق قابل للترنم والإنشاد، وليست لها أوزان. كما أن القافية التي تزود الأذن بعلامة ثابتة للوقوف والتي تقرر نهاية السطر ليست موجودة، وكل ما هنالك هو نظام (هغاد) الذي لا بد أن يحتوي كل شطر من شطري البيت على كلمة على الأقل مبتدأة بحرف القصيدة، ومتى ظهرت هذه الكلمة يستطيع الشاعر الصومالي أن ينهي الشطر.

وتعد قاعدة (هغاد) أو تجنيس الأحرف في بداية الكلمات من القواعد الصارمة التي لا بد أن

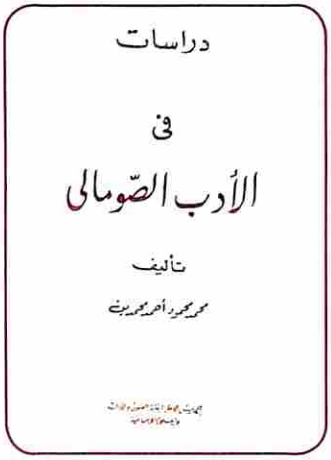

تراعى وتحترم والتي بمقتضاها يسمى الشعر شعرا، وإذا لم تراع هذه القاعدة لا يمكن اعتبار ما يقال في نظر الصوماليين شعرا (وخاصة قبل صدور الكتاب في عام ١٣٩٣هـ).

ومن أشهر الذين نبغوا في الشعر الصومالي المجاهد محمد عبدالله حسن الذي قاوم البريطانيين أكثر من عشرين عاما. ودارت معارك عنيفة بينه وبين المستعمرين، تم له النصر أحيانا وتخلف عنه أحيانا أخرى. وانتهت الحروب بينه وبين الإنجليز حينما قذف الإنجليز بقنابلهم معقل الشيخ محمد عبدالله حسن في تليح سنة ١٩٢٠، وعلى الرغم من أنه نجا من هذه الحادثة إلا أنه مات بعد ذلك بقليل من تأثير أنفلونزا حادة أو ملاريا في (غوانو) في أثيوبيا في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٠م،

وقد ترك الشيخ محمد عبدالله

■ الشعر الصومالي عبارة عن سطور متوازية على نسق قابل للترنم والإنشاد، وليست لها أوزان.

حسن قصائد تتناول القضايا السياسية والمعارك الحربية والتعاليم الإسلامية، ومنها قصيدة (طريق جهنم) ويعرض فيها الشيخ محمد عبدالله حسن بعض تعاليم الإسلام الأساسية، فيتناول الصلاة والزكاة وجميع الفروض الدينية، ويحث فيها على التمسك بطاعة الله وأداء ما أمرنا به ويفتخر الشيخ بأنه يحارب الكفار..

وفي قصيدة (المسلم الحق) عرض محمد عبدالله حسن صفات المسلم كما يجب. ويوضح

الفرق بين الشجاعة والجبن، والبخل والكرم، وبين ذي الخلق الحسن وذي الخلق السيئ، وأن جميع الصفات المستحبة هي صفات المسلم الحق.

ويقول محمد عبدالله حسن في قصيدة (المسلم الحق) حسب ترجمة المؤلف لها:

رجل يعرف الله ويتبع الشريعة ويعمل بها
لا ينسى الشهادة التي لقن إياها
ولا ينكر الحق، ويرضى به
يؤذن للصلاة في أوقاتها
ويوفي بالزكاة ويدفع أحسن ما عنده
رجل يدفع الأموال عندما يرى المسكين
ويستحي أن يقول استضعفت فلانا
ولا يشار إليه أبدا بالبخيل

ويبلغ طول هذه القصيدة ستة وستين بيتا. كما كتب الشيخ محمد عبدالله حسن عدة قصائد باللغة العربية وتتناول التعاليم الإسلامية.

وكتب كثير من الصوماليين قصائد باللغة العربية، وهي قصائد تتناول الأغراض الدينية والسياسية إلا أن هذه القصائد لا تراعى فيها أوزان الشعر من حيث التفاعيل، بل كل ما يرعاه الشاعر هو القافية، (وهذا نلاحظه في قصائد محمد عبدالله حسن). ومن أهم الشعراء الصوماليين الذين كتبوا قصائدهم بالعربية الشيخ أويس محمد والشيخ عبدالرحمن الزيلعي والشيخ قاسم البراوي.

◁ الأمثال الصومالية وخصائصها العامة

استعرض المؤلف الأمثال الصومالية وكشف عن خصائصها العامة، ويوضح المؤلف أن كلمة (مهماها) تطلق في اللغة الصومالية على المثل السائر، وهي تطلق على المفرد والجمع.

وللأمثال في الأدب الصومالي مكانة خاصة لأنها خلاصة تجارب صاغتها الأيام وألقت البيئة عليها ظلالها وتناقلتهاالألسن، ونتيجة لانتشار اللغة العربية بين عدد كبير من أفراد الشعب الصومالي فإن كثيرا من الأمثال والأحاديث النبوية قد دخلت الأدب الصومالي. ومن الأمثال الصومالية:

- الشدة لا تدوم
- اليد التي تعطي خير من الفم الذي يمدح.
- الذي يغمض عينه يراه الناس والذي يغمض ضميره يراه الله.
- لا تحفر حفرة فقد تقع فيها.
- الأصبع الواحد لا يغسل الوجه.
- يحصد الرجل مازرعه.
- الصابر سينال فرصته.
- لكل ماهر من هو أكثر مهارة.
- اجلس مع من تعرفهم.
- كل الناس لا يستغنون عن العجوز التي تستند إلى الجدار.

◁ الحكايات الشعبية الصومالية

ولم يغفل المؤلف الحكايات الشعبية الصومالية القديمة فقد تعرض لها في فصل طويل أبرز سماتها. أما نشأة الحكايات الشعبية الصومالية فكانت جماعا لتراكمات فكرية وفنية عديدة، ومنها انتشار الثقافة العربية الإسلامية بين عدد كبير من أفراد الشعب الصومالي...

ولهذا يؤكد المؤلف أهمية اللغة العربية ومكانتها في نفوس الصوماليين لأنها لغة القرآن الكريم. وقد ذكر المؤلف في أكثر من موضع أنه في كل قرية أو ناحية من نواحي الصومال تجد (الدُكسِيَّات) التي تعلم الأطفال القرآن الكريم والكتابة بالحروف العربية.

وقد عرض المؤلف نماذج من الحكايات الشعبية الصومالية مترجمة باللغة العربية، على عكس ما عالج الشعر، فقد دونه بلغته الأصلية مع شرح معاني القصائد باللغة العربية.

◁ الدور الإيجابي للشاعر الصومالي في مجتمعه

واهتم المؤلف برصد ما يقوم به الشاعر الصومالي من دور إيجابي في إحداث تغييرات وتطورات عديدة في مجتمعه، ففي قصيدة (يا رجال القبيلة أوقفوا الحرب) تتضح مهارة الشاعر (سلان عربي) في إخماد نيران الحرب بين فرعين من قبيلة (هبرجعلو) وهما: أحمد فارح وطاهر فارح، وكانت هاتان القبيلتان على وشك القتال بسبب ثأر قديم بينهما، فوقف سلان

عربي في واد بين هاتين القبيلتين وخاطبهم بهذه القصيدة، وقد استمع كبار كل من القبيلتين إليه، فكانت هذه القصيدة بردا وسلاما أطفأت نار الحرب ومنعت وقوعها، وقد بين سلان عربي الذي ينتسب إلى قبيلة (هبرجعلو) آثار الحرب والقتال التي حدثت من قبل بين فروع القبيلة نفسها، وذكرهم بالمآسي التي حدثت فذكر لهم موقعة (عَلولاعَدْ) وموقعة (عنلا) كما ذكر موقعة (ميْعاغ عِيَدان) التي حدث فيه القتال بين فروع قبيلة (طُلْبهَنْتي) وبين لهم كيف أن السلام يؤدي إلى الرخاء، ووضح لهم كيف أن الفقر نتيجة الانشقاق الداخلي كما حدث في قبيلة (المَجْرتين)، ويقول سلان عربي في قصيدته حسب ترجمة المؤلف لها:

يا قبيلة أوقفي الحرب
اللسان الذي أتكلم به
الرجل الذي جفت أوراق حياته
عامة الشعب لا يفهمون
عندما مات الشجعان
عنقود كبير من الرجال قطع
ستعاتبون في وقت قريب
يا قبيلة أوقفي القتال
هاتان القبيلتان
تتفاخران بالقوة
نحن أقرب الأقارب
بيننا غضب شديد
نعلم بما حدث في موقعة (عنلا)
والشجعان الخمسة (الذين فقدناهم) وبينهم عادل
وأول أبناء أمي
ولم أنس (على فين) كذلك
والرجال الذين ألقوا في مكان (عيرى)
كنا أقارب من عصب واحد
وجامع الممتاز الذي يحبه الجميع الذي كان فصيحا ويتفوق علينا في الكلام.

ويبلغ طول قصيدة (يا رجال القبيلة أوقفوا الحرب) ستة وسبعين بيتا.

وتناول المؤلف قصائد الشاعر (راغي أغاس) الذي ينتسب إلى قبيلة الأغاديين، وكثيرا ما كان يقوم بفض النزاعات في قبيلته، وكان يحتكم إليه كثيرا، وعرف كذلك بالصبر والتحمل.

وتطرق المؤلف لتجربة الشاعر عبدالله موسى الذي ينتسب إلى قبيلة هير يونس، ويعد من الشعراء الذين يستخدمون الشعر سبيلا إلى السلام، ولقد كان حفظه للقرآن عاملا قويا في نبوغه في الشعر وإلقاء الحكمة، وسمي بحافظ القرآن، ومن خلال تناوله لقصائد عديدة يكشف المؤلف عن الدور العظيم للشاعر الصومالي في إخماد نيران الحروب القبلية.

■ من أشهر الذين نبغوا في الشعر الصومالي المجاهد محمد عبدالله حسن الذي قاوم البريطانيين أكثر من عشرين عاما.

وبعد، فالكتاب عرض جاد لأعمال طائفة من الأدباء الصوماليين هم جديرون بمزيد من الدراسة الشاملة، والكتاب بحق يعد من الكتب والدراسات الأدبية الهادفة.

وقد ولد المؤلف محمد محمود أحمد محمدين في سنة ١٩٣٧م في مدينة الإسكندرية (مصر) وحصل على ليسانس الآداب سنة ١٩٥٩م ثم عين مدرسا للجغرافيا بمدرسة الإسكندرية الثانوية ثم اختير عضوا بالبعثة التعليمية المصرية بالصومال سنة ١٩٦٥م، وكلف بتدريس المواد الاجتماعية لتلاميذ الصومال باللغة العربية.

واستطاع خلال السنوات الأربع التي قضاها بالصومال أن يلتقط اللغة الصومالية من أفواه تلاميذه، ومخالطيه، واندمج في حياة الصومال متعمقا كلما ازدادت معلوماته اللغوية.

وعندما أحس أنه أتقن هذه اللغة غير المكتوبة آنذاك (سنة ١٩٦٥م) بدأ يفكر في التقنين لها ووضع قواعدها وتسجيل فروق لهجاتها، وساعده على ذلك أنه جاب الصومال من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه ■